كتاب

آراء أهل المدينة الفاضلة

لأبي نصر الفارابي

الفارابي، محمد بن محمد اوزلغ ، 874-950 .
كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة / لأبي نصر الفارابي ؛ إعداد وتقديم
عبد الحميد حمدان . ط 1 . - القاهرة : عالم الكتب ، 2008
58 ص ، 20 سم (سلسلة زبدة التراث ! 19)
تدمك : 8 -638 – 232 –977
1- المدن الفاضلة 2- الفلسفة الاسلامية
أ – حمدان ،عبد الحميد (معد ومقدم)
ب - العنوان
141.2

عالم الكتب
نشر - توزيع - طباعة

❖ الادارة :
16 شارع جواد حسني - القاهرة
تليفون : 23924626
فاكس : 0020223939027

❖ المكتبة :
38 شارع عبد الخالق ثروت - القاهرة
تليفون : 23926401 - 23959534
ص . ب 66 محمد فريد
الرمز البريدي : 11518

❖ الطبعة الاولى
1429 هـ - 2008 م

❖ رقم الإيداع 9765 / 2008

❖ الترقيم الدولي I.S.B.N
977– 232– 638- 8

❖ الموقع على الإنترنت : WWW.alamalkotob.com

❖ البريد الإلكتروني : info@alamalkotob.com

سلسلة زبدة التراث
١٩

كتاب

آراء أهل المدينة الفاضلة

لأبي نصر الفارابي

إعداد وتقديم

دكتور/ عبد الحميد صالح حمدان

عالم الكتب

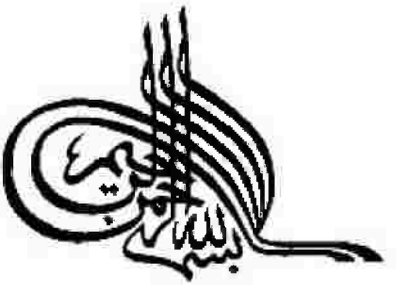
بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة زبدة التراث

تهدف هذه السلسلة فى المقام الأول إلى إحياء تراثنا الحضارى الدينى والعلمى بتبسيطه وجعله فى متناول يد الجميع، وخاصة شباب جيلنا المعاصر، وتقوم هذه السلسلة على أساس انتقاء زبدة نصوص شوامخ المؤلفات والمصنفات لأعلام الفكر العربى والإسلامى وإخراجها فى صورة موجزة لا تخل، بل تفى بالغرض الذى وضعت من أجله، دون الإثقال على القارئ الكريم بالتفاصيل المطولة أو الحواشى المسهبة. وقد جاء الاختيار غير عشوائى أو تعسفى، لكى يرضى جميع الأذواق والاتجاهات؛ وليكون مرآة صادقة لتراث حضارتنا الزاهرة وصانعيها على مر العصور، وإتاحة الفرصة للرجوع إلى الأصل الذى لا تغنى هذه الزبدة عنه بطبيعة الحال؛ فالغرض الأساسى لهذه السلسلة هو تحبيب التراث إلى النفوس وتقريبه إلى الأذهان.

وستعتمد هذه السلسلة على أمهات الكتب المحققة بواسطة محققين ثبت، وكذلك على بعض المخطوطات عند الاقتضاء.

الناشر

تصدير

ولد محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ، أبو نصر الفارابي[1]، في مدينة فاراب (وإليها نسبته)، سنة ٢٦٠هـ (٨٧٤م). وهو من أكبر فلاسفة المسلمين. تركي الأصل، مستعرب أحكم اللغة العربية. وهو عارف باللغات التركية والفارسية واليونانية والسريانية. وانتقل إلى بغداد، فنشأ فيها، وألف بها أكثر كتبه. ورحل إلى مصر والشام. واتصل بسيف الدولة ابن حمدان، وتوفي بدمشق سنة ٣٣٩هـ (٩٥٠ م). وقد عرف بالمعلم الثاني، لشرحه مؤلفات أرسطو (المعلم الأول). فكان زاهدًا لا يحفل بأمر مسكنٍ أو مكسب، ويميل إلى الانفراد بنفسه. وله نحو مائة كتاب منها: آراء أهل المدينة الفاضلة، والمدخل

---

(١) انظر ترجمته في وفيات الأعيان لابن خلكان ٢/ ٧٦، وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ٢/ ١٣٤ ـ ١٤٠، والفهرست لابن النديم ١/ ٢٦٣؛ وتاريخ الحكماء للقفطي، ٢٧٧ ـ ٢٨٠؛ والبداية والنهاية لابن كثير، ١١/ ٢٢٤، وشذرات الذهب لابن العماد، ٢/ ٣٥٠ ـ ٣٥٤، والأعلام للزركلي، ٧/ ٢٠، ومعجم المؤلفين لكحالة، ١١/ ١٩٤ ـ ١٩٦.

إلى صناعة الموسيقى، وإحصاء العلوم والتعريف بأغراضها، والمدخل إلى علم المنطق، وتحصيل السعادة، والآداب الملوكية.

وقد نشر كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة لأول مرة فى عام ١٣٣٤ هـ/ ١٩٠٦م فى مصر[١]. وقد ترجم إلى الفرنسية فى عام ١٩٤٩. وهو ينقسم إلى قسمين كبيرين: قسم فلسفى وقسم سياسى اجتماعى[٢].

وقد اخترنا فى هذه الزبدة عدة فصول من هذين القسمين اللذين هدف الفارابى بهما إلى تنظيم المعمورة تنظيمًا دينيًا، وكان متأثرًا فى ذلك بعقيدة الإسماعيلية، كما أنه تأثر "بجمهورية" أفلاطون وبالمعتزلة المعاصرين له. وقد دافع الفارابى عن نظامه الفلسفى هذا وركز على نقاطه الأساسية مثل إشراق العقل الفعّال، والتميز بين الحكمة والشريعة والتأويل وقِدم العالم فى الزمان، وغير ذلك من الأفكار التى بقيت فى جوهرها وسار عليها فلاسفة الإسلام من بعده فى الشرق وفى الغرب.

د. عبد الحميد صالح حمدان

---

(١) انظر معجم المطبوعات لسركيس، ٢/ ١٤٢٤ ـ ١٤٢٦.

(٢) انظر طبعة دار الشروق، بيروت، مقدمة الدكتور البير نصرى نادر، ص ٢٣ وما بعدها.

الفصل الأول

القول فى الموجود الأول

الموجود الأول هو السبب الأول لوجود سائر الموجودات كلها، وهو برىء من جميع أنحاء النقص. وكل ما سواه فليس يخلو من أن يكون فيه شيء من أنحاء النقص، إما واحدًا وإما أكثر من واحد. وأما الأول فهو خلو من أنحائها كلها، فوجوده أفضل الوجود، وأقدم الوجود، ولا يمكن أن يكون وجود أفضل ولا أقدم من وجوده. وهو من فضيلة الوجود فى أعلى أنحائه، ومن كمال الوجود فى أرفع المراتب. ولذلك لا يمكن أن يشوب وجوده وجوهره عدم أصلاً. والعدم والضد لا يكونان إلا فيما دون فلك القمر. والعدم هو لا وجود ما شأنه أن يوجد.

ولا يمكن أن يكون له وجود بالقوة، ولا على نحو من الأنحاء، ولا إمكان أن لا يوجد ولا بوجه ما من الوجوه. فلهذا هو أزلى، دائم

الوجود بجوهره وذاته، من غير أن يكون به حاجة فى أن يكون أزليًّا إلى شيء آخر يمد بقاءه، بل هو بجوهره كاف فى بقائه ودوام وجوده.

ولا يمكن أن يكون وجود أصلاً مثل وجوده، ولا أيضًا فى مثل مرتبة وجوده وجود يمكن أن يكون له أو يتوفر عليه.

وهو الموجود الذى لا يمكن أن يكون له سبب به، أو عنه، أو له، كان وجوده. فإنه ليس بمادة، ولا قوامه فى مادة ولا فى موضوع أصلاً. بل وجوده خلو من كل مادة ومن كل موضوع، ولا أيضًا له صورة، لأن الصورة لا يمكن أن تكون إلا فى مادة. ولو كانت له صورة لكانت ذاته مؤتلفة من مادة وصورة. ولو كان كذلك لكان قوامه بجزئيه اللذين منهما ائتلف، ولكان لوجوده سبب. فإن كل واحد من أجزائه سبب لوجود جملته، وقد وضعنا أنه سبب أول.

ولا أيضًا لوجوده غرض وغاية حتى يكون، إنما وجوده ليتم تلك الغاية وذلك الغرض، وإلا لكان يكون ذلك سببًا ما لوجوده، فلا يكون سببًا أولاً.

ولا أيضًا استفاد وجوده من شيء آخر أقدم منه، وهو من أن يكون استفاد ذلك مما هو دونه أبعد.

الفصل الثانى

القول فى نفى الشريك عنه تعالى

وهو مباين بجوهره لكل ما سواه، ولا يمكن أن يكون الوجودُ الذى له لشىء آخر سواه، لأن كل ما وجوده هذا الوجود لا يمكن أن يكون بينه وبين شىء آخر له أيضًا هذا الوجود مباينةٌ أصلاً، ولا تغايرٌ أصلاً؛ فلا يكون اثنان، بل يكون هناك ذات واحد فقط؛ لأنه إن كانت بينهما مباينةٌ كان الذى تباينا به غير الذى اشتركا فيه. فيكون الشىء الذى باين كل واحد منهما الآخر جزءًا مما به قوام وجودهما، والذى اشتركا فيه هو الجزء الآخر. فيكون كل واحد منهما منقسمًا بالقول، ويكون كل واحد من جزئيه سببًا لقوام ذاته. فلا يكون أولاً، بل يكون هناك موجود آخر أقدم منه هو سبب لوجوده؛ وذلك محال.

وإن كان ذلك الآخر هو الذى فيه ما باين به هذا، ولم يكن فى شىء يباين به ذلك إلا بُعْدَ الشىء الذى به باين ذلك، لزم أن يكون الشىء

الذى به باين ذلك الآخر هو الوجود الذى يخص ذاك. ووجود هذا مشترك لهما، فإذن ذلك الآخر وجوده مركب من شيئين: من شيء يخصه، ومن شيء يشارك به هذا. فليس إذن وجود ذاك هو وجود هذا، بل ذات هذا بسيط غير منقسم، وذات ذلك منقسم. فلذلك إذن جزآن بهما قوامه. فلوجوده إذن سبب. فوجوده إذن دون وجود هذا وانقص منه. فليس هو إذن من الوجود فى الرتبة الأولى.

وأيضًا، فإنه لو كان مثل وجوده فى النوع خارجًا منه بشيء آخر، لم يكن تام الوجود؛ لأن التام هو ما لا يمكن أن يوجد خارجًا منه وجود من نوع وجوده، وذلك فى أى شيء كان؛ لأن التام فى العِظَم هو ما لا يوجد عِظَمٌ خارجًا منه، والتام فى الجمال هو الذى لا يوجد جمالٌ من نوع جماله خارجًا منه، وكذلك التام فى الجوهر هو ما لا يوجد شيء من نوع جوهره خارجًا منه؛ وكذلك كل ما كان من الأجسام تامًّا، لم يمكن أن يكون من نوعه شيء آخر غيره، مثل الشمس والقمر وكل واحد من الكواكب الأخَر. إذا كان الأول تام الوُجُود لم يمكن أن يكون ذلك الوجود لشيء آخر غيره. فإذن هو منفرد الوجود وحده. فهو واحد من هذه الجهة.

الفصل السادس

القول في عظمته وجلاله ومجده تعالى

وكذلك عظمته وجلاله ومجده. وإن العظمة والجلالة والمجد في الشيء إنما يكون بحسب كماله، إما في جوهره، وإما في عرض من خواصه. وأكثر ما يقال ذلك فينا. إنما هو لكمال ما لنا في عرض من أعراضنا، مثل اليسار والعلم، وفي شيء من أعراض البدن. والأول، لما كان كماله بائنًا لكل كمال، كانت عظمته وجلاله ومجده بائنًا لكل ذي عظمة ومجد، وكانت عظمته ومجده الغايات فيما له من جوهره لا في شيء آخر خارج عن جوهره وذاته؛ ويكون ذا عظمة في ذاته وذا مجد في ذاته؛ أجلّه غيره أو لم يجله، عظّمه غيره أو لم يعظمه، مجّده غيرُه أو لم يمجده.

والجمال والبهاء والزينة في كل موجود هو أن يوجَدَ وجودُه الأفضل، ويحصُلَ له كمالُه الأخير. وإذ كان الأول وجوده أفضل

الوجود، فجمالُه فائتٌ لجمال كل ذى الجمال، وكذلك زينتُه وبهاؤه. ثم هذه كلها له فى جوهره وذاته؛ وذلك فى نفسه وبما يعقله من ذاته. وأما نحن، فإن جمالنا وزينتنا وبهاءَنا هى لنا بأعراضنا، لا بذاتنا؛ وللأشياء الخارجة عنا، لا فى جوهرنا. والجمال فيه والكمال ليسا هما فيه سوى ذات واحدة، وكذلك سائرها.

واللذة والسرور والغبطة، إنما ينتج ويحصل أكثر بأن يدرك الأجمل والأبهى والأزين بالإدراك الأتقن والأتم. فإذا كان هو الأجمل فى النهاية والأبهى والأزين، فإدراكه لذاته الإدراك الأتقن فى الغاية، وعلمه بجوهره العلم الأفضل على الإطلاق، واللذة التى يلتذ بها الأول لذة لا نفهم نحن كنهها ولا ندرى مقدار عظمها إلا بالقياس والإضافة إلى ما نجده من اللذة، عندما نكون قد أدركنا ما هو عندنا أكمل وأبهى إدراكًا، وأتقن وأتم، إما بإحساس أو تخيل أو بعلم عقلى. فإنَّا عند هذه الحال يحصل لنا من اللذة ما نظن أنه فائت لكل لذة فى العظم، ونكون نحن عند أنفسنا مغبوطين بما نلنا من ذلك غاية الغبطة، وإن كانت تلك الحال منا يسيرة البقاء سريعة الدثور. فقياس علمه هو وإدراكه الأفضل من ذاته والأجمل والأبهى إلى علمنا نحن، وإدراكنا الأجمل والأبهى عندنا، هو قياس سروره ولذته واغتباطه بنفسه إلى ما يتالنا من اللذة والسرور والاغتباط بأنفسنا. وإذن كان لا نسبة لإدراكنا نحن إلى إدراكه، ولا لمعلومنا إلى معلومه، ولا لملأجمل

عندنا إلى الأجمل من ذاته؛ وإن كانت له نسبة فهي نسبة ما يسيرة. فإذن لا نسبة لالتذاذنا وسرورنا واغتباطنا لأنفسنا إلى ما للأول من ذلك. وإن كانت له نسبة فهي نسبة يسيرة جدًّا. فإنه كيف يكون نسبة لما هو جزء يسير إلى ما مقداره غير متناهٍ في الزمان، ولما هو أنقص جدًّا إلى ما هو في غاية الكمال؟

وإن كان ما يلتذ بذاته ويسر به أكثر ويغتبط به اغتباطًا أعظم، فهو يحب ذاته ويَعْشَقُها ويعجب بها أكثر، فإنه بَيِّنٌ أن الأول يعشق ذاته ويحبها ويعجب بها إعجابًا بِنِسْبَتِه. ونسبته إلى عشقنا لما نلتذ به من فضيلة ذاتنا كنسبة فضيلة ذاته هو، وكمال ذاته، إلى فضيلتنا نحن وكمالنا الذي نُعْجَب به من أنفسنا، والمحب منه هو المحبوب بعينه، والمُعْجِبُ منه هو المُعْجَب منه، والعاشق منه هو المعشوق. وذلك على خلاف ما يوجد فينا، فإن المعشوق منا هو الفضيلة والجمال، وليس العاشق منا هو الجمال والفضيلة. لكن للعاشق قوة أخرى، فتلك ليست للمعشوق؛ فليس العاشق منا هو المعشوق بعينه. فأما هو فإن العاشق منه هو بعينه المعشوق، والمحب هو المحبوب، فهو المحبوب الأول والمعشوق الأول، أحبه غيرُه أو لم يحبه، وعشقه غيره أو لم يعشقه.

الفصل العشرون

القول فى أجزاء النفس الإنسانية وقواها

فإذا حدث الإنسان، فأول ما يحدث فيه القوة التى بها يتغذى، وهى القوة الغاذية؛ ثم من بعد ذلك القوة التى بها يحس الملموس، مثل الحرارة والبرودة، وسائرها التى بها يحس الطعوم، والتى بها يحس الروائح، والتى بها يحس الأصوات، والتى بها يحس الألوان والمبصرات كلها مثل الشعاعات. ويحدث مع الحواس بها نزوع إلى ما يحسه، فيشتاقه أو يكرهه. ثم يحدث فيه بعد ذلك قوة أخرى يحفظ بها ما ارتسم فى نفسه من المحسوسات بعد غيبتها عن مشاهدة الحواس لها، وهذه هى القوة المتخيلة. فهذه تُركِّب المحسوسات بعضها إلى بعض، وتفصل بعضَها عن بعض، تركيبات وتفصيلات مختلفة، بعضها كاذبة وبعضها صادقة؛ ويقترن بها نزوع نحو ما يتخيله. ثم من بعد ذلك يحدث فيه القوة الناطقة التى بها يمكن أن يعقل المعقولات، وبها يميز بين الجميل والقبيح، وبها يجوز الصناعات والعلوم، ويقترن بها أيضًا نزوع نحو ما يعقله.

فالقوة الغاذية، منها قوة واحدة رئيسة، ومنها قوى هى رواضع لها

وخدم. فالقوة الغاذية الرئيسة هى من سائر أعضاء البدن فى الفم؛ والرواضع والخدم متفرقة فى سائر الأعضاء؛ وكل قوة من الرواضع والخدم فهى فى عضو ما من سائر أعضاء البدن؛ والرئيسة منها هى بالطبع مدبرة لسائر القوى، وسائر القوى يتشبه بها ويحتذى بأفعالها حذوَ ما هو بالطبع غرضُ رئيسها الذى فى القلب، وذلك مثل المعدَة والكبد والطحال، والأعضاء الخادمة هذه، والأعضاء التى تخدم هذه الخادمة، والتى تخدم هذه أيضًا. فإن الكبد عضو يرؤس ويُرْأس، فإنه يُرأس بالقلب ويَرؤس المرارة والكلية وأشباهها من الأعضاء؛ والمثانة تخدم الكلية، والكلية تخدم الكبد، والكبد يخدم القلب؛ وعلى هذا توجد سائر الأعضاء.

والقوة الحاسة، فيها رئيس وفيها رواضع؛ ورواضعها هى هذه الحواس الخمس المشهورة عند الجميع، المتفرقة فى العينين وفى الأذنين وفى سائرها. وكل واحد من هذه الخمس يدرك حسًّا ما يخصه. والرئيسة منها هى التى اجتمع فيها جميع ما تدركه الخمس بأسرها، وكأن هذه الخمس هى منذرات تلك، وكأن هؤلاء أصحاب أخبار، كل واحد منهم موكل بجنس من الأخبار، وبأخبار ناحية من نواحى المملكة. والرئيسة كأنها هى الملك الذى عنده تجتمع أخبار نواحى مملكته من أصحاب أخباره. والرئيسة من هذه أيضًا هى فى القلب.

والقوة المتخيلة ليس لها رواضع متفرقة فى أعضاء أخر، بل هى واحدة، وهى أيضًا فى القلب، وهى تحفظ المحسوسات بعد غيبتها عن

الحس. وهى بالطبع حاكمة على المحسوسات ومتحكمة عليها، وذلك أنها تُفرد بعضها عن بعض، وتركب بعضها إلى بعض، تركيبات مختلفة، يتفق فى بعضها أن تكون موافقة لما حُسَّ، وفى بعضها أن تكون مخالفة للمحسوس.

وأما القوة الناطقة، فلا رواضع ولا خدم لها من نوعها فى سائر الأعضاء، بل إنما رئاستها على سائر القوى المتخيلة؛ والرئيسة من كل جنس فيه رئيس ومرءوس. فهى رئيسة القوة المتخيلة، ورئيسة القوة الحاسة الرئيسة منها، ورئيسة القوة الغاذية الرئيسة منها.

والقوة النزوعية، وهى التى تشتاق إلى الشىء وتكرهه؛ فهى رئيسة، ولها خدم. وهذه القوة هى التى بها تكون الإرادة. فإن الإرادة هى نزوع إلى ما أدرك وعن ما أدرك، إما بالحس، وإما بالتخيل، وإما بالقوة الناطقة، وحكم فيه أنه ينبغى أن يؤخذ أو يترك. والنزوع قد يكون إلى علم شىء ما، وقد يكون إلى عمل شىء ما، إما بالبدن بأسره، وإما بعضو ما منه. والنزوع إنما يكون بالقوة النزوعية الرئيسة.

والأعمال بالبدن تكون بقوى تخدم القوة النزوعية. وتلك القوى متفرقة فى أعضاء أعدت لأن يكون بها تلك الأفعال، منها أعصاب ومنها عضل سارية فى الأعضاء، والتى تكون بها الأفعال التى نزوع الحيوان والإنسان إليها. وتلك الأعضاء مثل اليدين والرجلين وسائر الأعضاء التى يمكن أن تتحرك بالإرادة. فهذه القوى التى فى أمثال

هذه الأعضاء هي كلها جسمانية وخادمة للقوة النزوعية الرئيسة التي في القلب.

وعلم الشيء قد يكون بالقوة الناطقة، وقد يكون بالمتخيلة، وقد يكون بالإحساس.

فإذا كان النزوع إلى علم شيء شأنه أن يدرك بالقوة الناطقة، فإن الفعل الذي ينال به ما تُشَوِّق من ذلك، يكون بقوة ما أخرى في الناطقة، وهي القوة الفكرية، وهي التي تكون بها الفكرة والرؤية والتأمل والاستنباط.

وإذا كان النزوع إلى علم شيء ما يدرك بإحساس، كان الذي ينال به فعلاً مركبًا من فعل بدني ومن فعل نفساني في مثل الشيء الذي تتشوق رؤيته، فإنه يكون برفع الأجفان وبأن نحاذي أبصارنا نحو الشيء الذي تتشوق رؤيته. فإن كان الشيء بعيدًا مَشَيْنَا إليه، وإن كان دونه حاجز أزلنا بأيدينا ذلك الحاجز. فهذه كلها أفعال بدنية، والإحساس نفسه فعل نفساني. وكذلك في سائر الحواس.

وإذا تشوّق تخيل شيء ما، نيل ذلك من وجوه: أحدها يفعل بالقوة المتخيلة، مثل تخيل الشيء الذي يرجى ويتوقع، أو تخيل شيء مضى، أو تمنى شيء ما تركبه القوة المتخيلة؛ والثاني ما يرد على القوة المتخيلة من إحساس شيء ما، فتخيل إليه من ذلك أمر ما أنه مخوف أو مأمول، أو ما يرد عليها من فعل القوة الناطقة.

فهذه القوة النفسانية.

الفصل الحادى والعشرون

القول فى كيف تصير هذه القوى والأجزاء نفسًا واحدة

فالغاذية الرئيسة شبه المادة للقوة الحاسة الرئيسة، والحاسة صورة فى الغاذية. والحاسة الرئيسة شبه مادة للمتخيلة، والمتخيلة صورة فى الحاسة الرئيسة. والمتخيلة الرئيسة مادة للناطقة الرئيسة، والناطقة صورة فى المتخيلة، وليست مادة لقوى أخرى، فهى صورة لكل صورة تقدمتها. وأما النزوعية فإنها تابعة للحاسة الرئيسة والمتخيلة والناطقة، على جهة ما توجد الحرارة فى النار تابعة لما تتجوهر به النار.

فالقلب هو العضو الرئيس الذى لا يرأسه من البدن عضو آخر. ويليه الدماغ، فإنه أيضًا عضو ما رئيس، ورئاسته ليست رئاسة أولية، لكن رئاسة ثانية، وذلك لأنه يُرأس بالقلب، ويَرْأس سائر الأعضاء؛ فإنه يخدم القلب فى نفسه، وتخدمه سائر الأعضاء بحسب ما هو مقصود القلب بالطبع. وذلك مثل صاحب دار الإنسان، فإنه يخدم الإنسان فى نفسه وتخدمه سائر أهل داره، بحسب ما هو مقصود الإنسان فى الأمرين، كأنه يخلفه ويقوم مقامه وينوب عنه ويتبدل فيها

ليس يمكن أن يبدله الرئيس، وهو المستولى على خدمة القلب فى الشريف من أفعاله.

من ذلك، أن القلب ينبوع الحرارة الغريزية، فمنه تنبثّ فى سائر الأعضاء، ومنه تسترفد، وذلك بما ينبث فيها عنه من الروح الحيوانى الغريزى فى العروق الضوارب. ومما يرفدها القلب من الحرارة إنما تبقى الحرارة الغريزية محفوظة على الأعضاء. والدماغ هو الذى يعدّل الحرارة التى شأنها أن تنفذ إليها من القلب حتى يكون ما يصل إلى كل عضو من الحرارة معتدلاً له. وهذا أول أفعال الدماغ وأول شىء يخدم به وأعمها للأعضاء.

ومن ذلك أن فى الأعصاب صنفين: أحدهما آلات لرواضع القوة الحاسّة الرئيسة التى فى القلب فى أن يحسّ كل واحد منها الحسّ الخاصّ به، والآخر آلات الأعضاء التى تخدم القوة النزوعية التى فى القلب، بها يتأتى لها أن تتحرك الحركة الإرادية. والدماغ يخدم القلب فى أن يرفد أعصاب الحسّ ما يُبْقى به قواها التى بها يتأتى للرواضع أن تحسّ محفوظة عليها. والدماغ أيضًا يخدم القلب فى أن يرفد أعصاب الحركة الإرادية ما يبقى به قواها التى بها يتأتى للأعضاء الآلية الحركةُ الإراديةُ التى تخدم بها القوة النزوعية التى فى القلب. فإن كثيرًا من هذه الأعصاب مغارزها التى منه يُسترفد ما يحفظ به قواها فى الدماغ نفسه؛ وكثيرًا منها مغارزها فى النخاع النافذ، والنخاع من أعلاه متصل بالدماغ. فإن الدماغ يرفدها بمشاركة النخاع لها فى الإرفاد.

ومن ذلك أن تخيُّل القوة المتخيلة إنما يكون متى كانت حرارة القلب على مقدار محدود. وكذلك فكر القوة الناطقة، إنما يكون متى كانت حرارته على ضرب ما من التقدير، أى فعل. وكذلك حفظها وتذكّرها للشيء.

فالدماغ أيضًا يخدم القلب بأن يجعل حرارته على الاعتدال الذى يجود به تخيُّله، وعلى الاعتدال الذى يجود به فكره ورويّته، وعلى الاعتدال الذى يجود به حفظه وتذكره. فبجزء منه يعدل به ما يصلح به التخيّل، وبجزء آخر منه يعدل به ما يصلح به الفكر، وبجزء ثالث يعدل به ما يصلح الحفظ والذكر. وذلك أن القلب، لما كان ينبوع الحرارة الغريزية، لم يكن أن يجعل الحرارة التى فيه إلا قويّة مفرطة ليفضل منه ما يفيض إلى سائر الأعضاء، ولئلا يُقصِّر أو يجود. فلم تكن كذلك فى نفسها إلا لغاية بقلبه. فلما كان كذلك وجب أن يُعَدِّل حرارته التى تنفذ إلى الأعضاء، ولا تكون حرارته فى نفسها على الاعتدال الذى تجود به أفعاله التى تخصه. فجعل الدماغ لأجل ذلك بالطبع باردًا رطبًا، حتى فى الملمس، بالإضافة إلى سائر الأعضاء، وجعلت فيه قوة نفسانية تصير بها حرارة القلب على اعتدال محدود مُحصّل.

والأعصاب التى للحس والتى للحركة، لما كانت أرضية بالطبع، سريعة القبول للجفاف، كانت تحتاج إلى أن تبقى رطبة إلى لدانة موانية للتمدد والتقاصر. و(لما) كانت أعصاب الحس محتاجة مع ذلك إلى

الروح الغريزى الذى ليست فيه دخانية أصلاً و(لما) كان الروح الغريزى السالك فى أجزاء الدماغ هذه حاله، و(لما) كان القلب مفرط الحرارة ناريها، لم تجعل مغارزها التى بها تسترفد ما يحفظ قواها فى القلب، لئلا يسرع الجفاف إليها، فتتحلل وتبطل قواها، وأفعالها، جعلت مغارزها فى الدماغ وفى النخاع لأنهما رطبان جدًّا، لتُنفذ من كل واحد منهما فى الأعصاب رطوبةٌ تبقيها على اللدونة، وتستبقى بها قواها النفسانية، فبعض الأعصاب يحتاج فيها إلى أن تكون الرطوبة النافذة فيها مائية لطيفة غير لزجة أصلاً، وبعضها محتاج فيها إلى لزوجة ما. فما كان منها محتاجًا إلى مائية لطيفة غير لزجة، جعلت مغارزها فى الدماغ؛ وما كان منها محتاجًا فيها مع ذلك إلى أن تكون رطوبتها فيها لزجة، جعلت مغارزها فى النخاع؛ وما كان منها محتاجًا فيها إلى أن تكون رطوبتها قليلة، جعلت مغارزها أسفل الفقار والعُصْعُص.

ثم بعد الدماغ الكبد، وبعده الطحال، وبعد ذلك أعضاء التوليد. وكل قوة فى عضو كان شأنها أن تفعل فعلاً جسمانيًّا ينفصل به من ذلك العضو جسم ما ويصير إلى آخر، فإنه يلزم ضرورة، إما أن يكون ذلك الآخر متصلاً بالأول، مثل اتصال كثير من الأعصاب بالدماغ وكثير منها بالنخاع، أو أن يكون له طريق ومسيل متصل لذلك العضو يجرى فيه ذلك الجسم، وكانت تلك القوة خادمة له، أو رئيسة، مثل

الفم والرئة والكلية والكبد والطحال وغير ذلك. وكلما احتاجت أو كان شأنها أن تفعل فعلاً نفسانيًا فى غيرها، فإنه يلزم ضرورة أن يكون بينها مسيل جسمانى، مثل فعل الدماغ فى القلب.

فأول ما يتكون من الأعضاء القلب، ثم الدماغ ثم الكبد ثم الطحال، ثم تتبعها سائر الأعضاء. وأعضاء التوليد متأخرة الفعل من جميعها. ورياستها فى البدن يسيرة، مثل ما يتبين من فعل الأُنثَيَين وحفظهما الحرارة الذَكَرية والروح الذكرى الشائعَيْن من القلب فى الحيوان الذكر الذى له أنثيان.

والقوة التى بها يكون التوليد، منها رئيسة ومنها خادمة. والرئيسة منها فى القلب، والخادمة فى أعضاء التوليد. والقوة التى يكون بها التوليد أنثيان: إحداهما تعد المادة التى يتكوّن عنها الحيوان الذى له تلك القوة، والأخرى تعطى صورة ذلك النوع من الحيوان وتحرّك المادة إلى أن تحصل لها تلك الصورة التى لذلك النوع. والقوة التى تعدّ المادة هى قوة الأنثى، والتى تعطى الصورة هى قوة الذكر. فإن الأنثى هى أنثى بالقوة التى تُعَدّ بها المادة، والذكر هو ذكر بالقوة التى تعطى تلك المادة صورة ذلك النوع الذى له تلك القوة. والعضو الذى يخدم القلب فى أن يعطى مادة الحيوان هو الرحم، والذى يخدمه فى أن يعطى الصورة إما فى الإنسان وإما فى غيره من الحيوان العضوُ الذى يكوّن المنى. فإن المنى إذا ورد على رحم الأنثى فصادف هناك دمًا قد أعدّه

الرحم لقبول صورة الإنسان، أعطى المنى ذلك الدم قوةً يتحرّك بها إلى أن يحصل من ذلك الدم أعضاء الإنسان وصورة كل عضو، وبالجملة صورة الإنسان. فالدم المعدّ فى الرحم هو مادة الإنسان، والمنى هو المحرّك لتلك المادة إلى أن تحصل فيها الصورة.

ومنزلة المنى من الدم المعد فى الرحم منزلة الأنفحة التى ينعقد عنها اللبن. وكما أن الأنفحة هى الفاعلة للانعقاد فى اللبن وليس هى جزءًا من المنعقد ولا مادةً، كذلك المَنِىُّ ليس هو جزءًا من المنعقد فى الرحم، ولا مادةً. والجنين يتكوّن عن المنى كما يتكون الرائب من الأنفحة، ويتكون عن دم الرحم كما يتكون الرائب عن اللبن الحليب، والإبريق عن النحاس.

والذى يكوّن المنى فى الإنسان هى الأوعية التى يوجد فيها المنى، وهى العروق التى تحت جلد العانة، يرفدها فى ذلك بعضَ الإرفاد الأنثيان. وهذه العروق نافذة إلى المجرى الذى فى القضيب ليسيل من تلك العروق إلى مجرى القضيب، ويجرى فى ذلك المجرى إلى أن ينصب فى الرحم ويعطى الدم الذى فيه مبدأ قوة يتغير بها إلى أن تحصل به الأعضاء، وصورة كل عضو، وصورة جملة البدن.

والمنى آلة الذكر.

والآلات منها مواصلة، ومنها مفارقة من ذلك، مثل الطبيب؛ فإن

اليد آلة للطبيب يعالج بها، والمبضع آلة له يعالج بها، والدواء آلة يعالج بها. فالدواء آلة مفارقة، وإنما يواصله الطبيب حين ما يفعله ويصنعه ويعطيه قوة يحرك بها بدن العليل إلى الصحة. فإذا حصلت فيه تلك القوة ألقاها فى جوف بدن العليل مثلاً، فتحرك بدنه نحو الصحة. والطبيب الذى ألقاها غائب أو ميت مثلاً. وكذلك منزلة المنى. والمبضع (آلة) لا تفعل فعلها إلا بمواصلة الطبيب المستعمل له، واليد أشد مواصلة له من المبضع. وأما الدواء فإنه يفعل بالقوة التى فيه من غير أن يكون الطبيب مواصلاً له. كذلك المنى فإنه آلة للقوة المولدة الذكرية وتفعل مفارقة. وأوعية المنى والأنثيان آلة للتوليد مواصلة للبدن. فمنزلة العروق التى تكون آلات المنى من القوة الرئيسة التى فى القلب منزلة يد الطبيب التى يعمل بها الدواء ويعطيه قوة محركة، ويحرك بها بدن العليل إلى الصحة. فإن تلك العروق التى يستعملها القلب بالطبع هى آلات فى أن يعطى المنى القوة التى يحرك بها الدم المعد فى الرحم إلى صورة ذلك النوع من الحيوان.

فإذا أخذ الدم عن المنى القوة التى يتحرك بها إلى الصورة، فأول ما يتكوَّن القلب، ويُنتَظر بتكوينه تكوين سائر الأعضاء ما يتفق أن يحصل فى القلب من القوى. فإن حصلت فيه مع القوة الغاذية القوة التى بها تعد المادة، تكون سائر الأعضاء على أنها أعضاء أنثى. فإن حصلت فيه (القوة) التى تعطى الصورة، تكوّن سائر الأعضاء على

أنها أعضاء ذكر. وتحصل من تلك، الأعضاءُ المولدة التى للأنثى، وتحصل من هذه، الأعضاء المولدة التى للذكر. ثم سائر القوى النفسانية الباقية تحدث فى الأنثى على مثال ما هى فى الذكر.

وهاتان القوتان، أعنى الذكرية والأنثوية، هما فى الإنسان مفترقان فى شخصين، وأما فى كثير من النبات فإنّهما مقترنان على التمام فى شخص واحد، مثل كثير من النبات الذى يتكوّن عن البذر؛ فإن النبات يعطى المادة، وهى البذر، ويعطى بها مع ذلك قوة يتحرك بها نحو الصورة. فإن البذر فيه استعداد لقبول الصورة وقوة يتحرك بها نحو الصورة. فالذى أعطاه الاستعداد لقبول الصورة هى القوة الأنثوية، والذى أعطاه مبدأ يتحرك به نحو الصورة هو القوة الذكرية.

وقد يوجد أيضًا فى الحيوان ما سبيله هذا السبيل. ويوجد أيضًا ما القوة الأنثوية فيه تامة، وتقترن إليها قوة ما ذكرية ناقصة تفعل فعلها إلى مقدار ما ثم تجوز، فتحتاج إلى معين من خارج، مثل الذى يبيض بيض الريح، ومثل كثير من أجناس السمك التى تبيض ثم تودع بيضها، فيتبعها ذكورتها، فتلقى عليها رطوبة. فأيّة بيضة أصابها من تلك الرطوبة شىء كان عنها حيوان، وما لم يصبها ذلك فسدت.

وأما الإنسان فليس كذلك. بل هاتان القوتان متميزتان فى شخصين، ولكل واحد منهما أعضاء تخصه: وهى الأعضاء المعروفة لهما، وسائر الأعضاء فيهما مشتركة. وكذلك يشتركان فى قوى النفس

كلها سوى هاتين. وما يشتركان فيه من أعضاء فإنه فى الذكر أسخن، وما كان منها فعله الحركة والتحريك، فإنه فى الذكر أقوى حركة وتحريكًا. والعوارض النفسانية، فما كان منها مائلاً إلى القوة، مثل الغضب والقسوة، فإنها فى الأنثى أضعف وفى الذكر أقوى. وما كان من العوارض مائلاً إلى الضعف، مثل الرأفة والرحمة، فإنه فى الأنثى أقوى. على أنه لا يمتنع أن يكون فى ذكورة الإنسان من توجد العوارض فيه شبيهة بما فى الإناث، وفى الإناث من توجد فيه هذه شبيهة بما هو فى الذكور. فبهذه تفترق الإناث والذكور فى الإنسان.

وأما فى القوة الحاسة وفى المتخيلة وفى الناطقة، فليسا يختلفان. فيحدث عن الأشياء الخارجة رسوم المحسوسات فى القوى الحاسة التى هى رواضع، ثم تجتمع المحسوسات المختلفة الأجناس، المدركة بأنواع الحواس الخمسة فى القوى الحاسة الرئيسة، ويحدث عن المحسوسات الحاصلة فى هذه القوى رسوم المتخيلات فى القوة المتخيلة، فتبقى هنالك محفوظة بعد غيبتها عن مباشرة الحواس لها. فتتحكم فيها، فيفرد بعضها عن بعض أحيانًا، ويركب بعضها إلى بعض أصنافًا من التركيبات كثيرة بلا نهاية، بعضها كاذبة وبعضها صادقة.

الفصل السادس والعشرون

القول فى احتياج الإنسان إلى الاجتماع والتعاون

وكل واحد من الناس مفطور على أنه محتاج، فى قوامه، وفى أن يبلغ أفضل كمالاته، إلى أشياء كثيرة لا يمكنه أن يقوم بها كلها هو وحده، بل يحتاج إلى قوم يقوم له كل واحد منهم بشىء مما يحتاج إليه. وكل واحد من كل واحد بهذه الحال. فلذلك لا يمكن أن يكون الإنسان ينال الكمال، الذى لأجله جعلت الفطرة الطبيعية، إلا باجتماعات جماعة كثيرة متعاونين، يقوم كل واحد لكل واحد ببعض ما يحتاج إليه فى قوامه؛ فيجتمع، مما يقوم به جملة الجماعة لكل واحد، جميع ما يحتاج إليه فى قوامه وفى أن يبلغ الكمال. ولهذا كثرت أشخاص الإنسان، فحصلوا فى المعمورة من الأرض، فحدثت منها الاجتماعات الإنسانية.

فمنها الكاملة، ومنها غير الكاملة. والكاملة ثلاث: عظمى ووسطى وصغرى.

فالعظمى، اجتماعات الجماعة كلها فى المعمورة؛ والوسطى، اجتماع أمة فى جزء من المعمورة؛ والصغرى، اجتماع أهل مدينة فى جزء من مسكن أمة.

وغير الكاملة: اجتماع أهل القرية، واجتماع أهل المحلة، ثم اجتماع فى سكّة، ثم اجتماع فى منزل. وأصغرها المنزلة. والمحلة والقرية هما جميعًا لأهل المدينة؛ إلا أن القرية للمدينة على أنها خادمة للمدينة؛ والمحلة للمدينة على أنها جزؤها. والسكة جزء المحلّة؛ والمنزل جزء السكة؛ والمدينة جزء مسكن أمة؛ والأمة جزء جملة أهل المعمورة.

فالخير الأفضل والكمال الأقصى إنما ينال أولاً بالمدينة، لا باجتماع الذى هو أنقص منها. ولما كان شأن الخير فى الحقيقة أن يكون ينال بالاختيار والإرادة، وكذلك الشرور إنما تكون بالإرادة والاختيار، أمكن أن تجعل المدينة للتعاون على بلوغ بعض الغايات التى هى شرور؛ فلذلك كل مدينة يمكن أن ينال بها السعادة. فالمدينة التى يقصد بالاجتماع فيها التعاون على الأشياء التى تنال بها السعادة فى الحقيقة، هى المدينة الفاضلة. والاجتماع الذى به يتعاون على نيل السعادة هو الاجتماع الفاضل. والأمة التى تتعاون مدنها كلها على ما تنال به السعادة هى الأمة الفاضلة. وكذلك المعمورة الفاضلة، إنما تكون إذا كانت الأمم التى فيها تتعاون على بلوغ السعادة.

والمدينة الفاضلة تشبه البدن التام الصحيح، الذى تتعاون أعضاؤه

كلها على تتميم حياة الحيوان، وعلى حفظها عليه. وكما أن البدن أعضاؤه مختلفة متفاضلة الفطرة والقوى، وفيها عضو واحد رئيس وهو القلب، وأعضاؤه تقرب مراتبها من ذلك الرئيس، وكل واحد منها جعلت فيه بالطبع قوة يفعل بها فعله، ابتغاء لما هو بالطبع غرض ذلك العضو الرئيس، وأعضاء أخر فيها قوى تفعل أفعالها على حسب أغراض هذه التي ليس بينها وبين الرئيس واسطة ـ فهذه في الرتبة الثانية ـ وأعضاء أخر تفعل الأفعال على حسب غرض هؤلاء الذين في هذه المرتبة الثانية، ثم هكذا إلى أن تنتهي إلى أعضاء تخدم ولا ترؤس أصلاً. وكذلك المدينة، أجزاؤها مختلفة الفطرة، متفاضلة الهيئات. وفيها إنسان هو رئيس، وآخر يقرب مراتبها من الرئيس. وفي كل واحد منها هيئة وملكة يفعل بها فعلاً يقتضي به ما هو مقصودُ ذلك الرئيس. وهؤلاء هم أولو المراتب الأول. ودون هؤلاء قوم يفعلون الأفعال على حسب أغراض هؤلاء، وهؤلاء هم في الرتبة الثانية. ودون هؤلاء أيضًا من يفعل الأفعال على حسب أغراض هؤلاء. ثم هكذا تترتب أجزاء المدينة إلى أن تنتهي إلى أُخر يفعلون أفعالهم على حسب أغراضهم، فيكون هؤلاء هم الذين يَخْدُمون ولا يُخْدَمون، ويكونون في أدنى المراتب، ويكونون هم الأسفلين.

غير أن أعضاء البدن طبيعية، والهيئات التي لها قوى طبيعية. وأجزاء المدينة، وإن كانوا طبيعيين، فإن الهيئات والملكات التي يفعلون

بها أفعالهم للمدينة ليست طبيعية، بل إرادية. على أن أجزاء المدينة مفطورون بالطبع بفطر متفاضلة يصلح بها إنسان لإنسان، لشيء دون شيء. غير أنهم ليسوا أجزاءَ المدينة بالفطر التي لهم وحدها، بل بالملكات الإرادية التي تحصل لها، وهي الصناعات وما شاكلها. والقوى التي هي أعضاء البدن بالطبع، فإن نظائرها في أجزاء المدينة ملكات وهيئات إرادية.

الفصل السابع والعشرون

القول فى العضو الرئيس

وكما أن العضو الرئيس فى البدن هو بالطبع أكمل أعضائه وأتمُّها فى نفسه وفيما يخصه، وله من كل ما يشارك فيه عضو آخر أفضله؛ ودونه أيضًا أعضاء أُخرى رئيسة لما دونها، ورياستها دون رياسة الأول، وهى تحت رياسة الأول تَرأس وتُرأس؛ كذلك رئيس المدينة هو أكمل أجزاء المدينة فيما يخصّه، وله من كل ما شارك فيه غيره أفضله. ودونه قوم مرءوسون منه ويرؤسون آخرين.

وكما أن القلب يتكوّن أولاً، ثم يكون هو السبب فى أن يكون سائرُ أعضاء البدن، والسبب فى أن تحصل لها قواها وأن تترتب مراتبها، فإذا اختلّ منها عضو كان هو المرفد بما يزيل عنه ذلك الاختلال، كذلك رئيس هذه المدينة ينبغى أن يكون هو أولاً، ثم يكون هو السبب فى أن تحصل المدينة وأجزاؤها، والسبب فى أن تحصل الملكات الإرادية التى

لأجزائها فى أن تترتب مراتبها؛ وإن اختل منها جزء كان هو المرفد له بما يزيل عنه اختلاله.

وكما أن الأعضاء التى تقرب من العضو الرئيس تقوم من الأفعال الطبيعية التى هى على حسب غرض الرئيس الأول بالطبع بما هو أشرف، وما هو دونها من الأعضاء يقوم بالأفعال بما هو دون ذلك فى الشرف، إلى أن ينتهى إلى الأعضاء التى يقوم بها من الأفعال أخسها؛ كذلك الأجزاء التى تقرب فى الرياسة من رئيس المدينة تقوم من الأفعال الإرادية بما هو أشرف، ومن دونهم بما هو دون ذلك فى الشرف، إلى أن ينتهى إلى الأجزاء التى تقوم من الأفعال بأخسها.

وخسة الأفعال ربما كانت بخسة موضوعاتها، فإن كانت تلك الأفعال عظيمة الغناء، مثل فعل المثانة وفعل الأمعاء السفلى فى البدن؛ وربما كانت لقلة غنائها؛ وربما كانت لأجل أنها كانت سَهلَة جدًّا؛ كذلك (الحال) فى المدينة. وكذلك كل جملة كانت أجزاؤها مؤتلفة منتظمة مرتبطة بالطبع، فإن لها رئيسًا حالهُ من سائر الأجزاء هذه الحال.

وتلك أيضًا حال الموجودات. فإن السبب الأول نسبته إلى سائر الموجودات كنسبة ملك المدينة الفاضلة إلى سائر أجزائها. فإن البريئة من المادة تقرب من الأول، ودونها الأجسام السماوية، ودون السماوية الأجسام الهيولانية. وكل هذه تحتذى حَذْوَ السبب الأول وتؤمّه وتقتفيه؛ ويفعل ذلك كل موجود بحسب قوته. إلا أنها إنما تقتفى

الغرض بمراتب، وذلك أن الأخس يقتفي غرض ما هو فوقه قليلاً، وذلك يقتفي غرض ما هو فوقه، وأيضًا كذلك للثالث غرض ما هو فوقه، إلى أن تنتهي إلى التي ليس بينها وبين الأول واسطة أصلاً. فعلى هذا الترتيب تكون الموجودات كلها تقتفي غرض السبب الأول. فالتي أعطيت كلَّ ما به وجودُها من أول الأمر، فقد احتذى بها من أول أمرها حذو الأول ومقصده، فعادت وصارت في المراتب العالية. وأما التي لم تُعطَ من أول الأمر كل ما به وجودها، فقد أعطيت قوة تتحرك بها نحو ذلك الذي تتوقع نيله، وتقتفي في ذلك ما هو غرض الأول. وكذلك ينبغي أن تكون المدينة الفاضلة: فإن أجزاءها كلها ينبغي أن تحتذي بأفعالها حذو مقصد رئيسها الأول على الترتيب.

ورئيس المدينة الفاضلة ليس يمكن أن يكون أيُّ إنسان اتفق، لأن الرئاسة إنما تكون بشيئين: أحدهما أن يكون بالفطرة والطبع معدًّا لها، والثاني بالهيئة والملكة الإرادية. والرياسة (التي) تحصل لمن فطر بالطبع معدًّا لها. فليس كل صناعة يمكن أن يُرأس بها، بل أكثر الصنائع صنائع يخدم بها في المدينة، وأكثر الفطر هي فطر الخدمة. وفي الصنائع صنائع يُرأس بها ويُستخدم بها صنائع أخر، وفيها صنائع يخدم بها فقط ولا يرأس بها أصلاً. فكذلك ليس يمكن أن تكون صناعة رئاسة المدينة الفاضلة أيَّ صناعة ما اتفقت، ولا أي ملكة ما اتفقت.

وكما أن الرئيس الأول في جنس لا يمكن أن يرأسه شيء من ذلك الجنس، مثل رئيس الأعضاء، فإنه هو الذي لا يمكن أن يكون عضوٌ آخر رئيسًا عليه؛ وكذلك في كل رئيس في الجملة. كذلك الرئيس الأول للمدينة الفاضلة ينبغي أن تكون صناعته صناعةً لا يمكن أن يخدم بها أصلاً، ولا يمكن فيها أن ترأسها صناعة أخرى أصلاً. بل تكون صناعته صناعة نحو غرضها تؤم الصناعات كلها، وإيّاه يقصد بجميع أفعال المدينة الفاضلة. ويكون ذلك الإنسان إنسانًا لا يكون يرأسه إنسان أصلاً؛ وإنما يكون ذلك الإنسان إنسانًا قد استكمل، فصار عقلاً ومعقولاً بالفعل. وقد استكملت قوته المتخيلة بالطبع غايةَ الكمال على ذلك الوجه الذي قلنا، وتكون هذه القوة منه معدّة بالطبع لتقبل، أما في وقت اليقظة أو في وقت النوم، عن العقل الفعّال الجزئيات، إما بأنفسها وإما بما يحاكيها، ثم المعقولات بما يحاكيها. وإن يكون عقله المنفعل قد استكمل بالمعقولات كلها، حتى لا يكون يُنفى عليه منها شيء، وصار عقلاً بالفعل.

فأي إنسان استكمل عقله المنفعل بالمعقولات كلها، وصار عقلاً بالفعل ومعقولاً بالفعل، وصار المعقول منه هو الذي يعقل، حصل له حينئذ عقل ما بالفعل رتبته فوق العقل المنفعل، أتم وأشدّ مفارقةً للمادة، ومقاربة من العقل الفعّال، ويسمّى العقل المستفاد، ويصير متوسطًا بين العقل المنفعل وبين العقل الفعّال، ولا يكون بينه وبين

العقل الفعّال شيء آخر. فيكون العقل المنفعل كالمادة والموضوع للعقل المستفاد، والعقل المستفاد كالمادة والموضوع للعقل الفعّال. والقوة الناطقة، التي هي هيئة طبيعية، تكون مادة موضوعة للعقل الفعّال الذي هو بالفعل عقل.

وأول الرتبة التي بها الإنسان إنسان هو أن تحصل الهيئة الطبيعية القابلة المعدّة لأن يصير عقلاً بالفعل. وهذه هي المشتركة للجميع؛ فبينها وبين العقل الفعّال رتبتان (هما): أن يحصل العقل المنفعل بالفعل، وأن يحصل العقل المستفاد. وبين هذا الإنسان الذي بلغ هذا المبلغ من أول رتبة الإنسانية وبين العقل الفعّال رتبتان. وإذا جعل العقل المنفعل الكامل والهيئة الطبيعية كشيء واحد، على مثال ما يكون المؤتلف من المادة والصورة شيئًا واحدًا، وإذا أخذ هذا الإنسان صورة إنسانية، هو العقل المنفعل الحاصل بالفعل، كان بينه وبين العقل الفعّال رتبة واحدة فقط. وإذا جعلت الهيئة الطبيعية مادة العقل المنفعل [الذي صار عقلاً بالفعل]، والمنفعل مادة المستفاد، والمستفاد مادة العقل الفعّال، وأخذت جملة ذلك كشيء واحد، كان هذا الإنسان هو الإنسان الذي حلّ فيه العقل الفعّال.

وإذا حصل ذلك في كلا جزئَي قوته الناطقة، وهما النظرية والعملية، ثم في قوته المتخيلة، كان هذا الإنسان هو الذي يوحى إليه. فيكون الله، عز وجل، يوحي إليه بتوسّط العقل الفعّال، فيكون ما

يفيض من الله، تبارك وتعالى، إلى العقل الفعّال يفيضه العقل الفعّال إلى عقله المنفعل بتوسّط العقل المستفاد، ثم إلى قوته المتخيلة. فيكون بما يفيض منه إلى عقله المنفعل حكيمًا فيلسوفًا ومتعقلاً على التمام، وبما يفيض منه إلى قوته المتخيلة نبيًّا منذرًا بما سيكون ومخبرًا بما هو الآن (من) الجزئيات، بوجود يعقل فيه الإلهي. وهذا الإنسان هو في أكمل مراتب الإنسانية وفي أعلى درجات السعادة. وتكون نفسه كاملة متّحدة بالعقل الفعّال على الوجه الذي قلنا. وهذا الإنسان هو الذي يقف على كل فعل يمكن أن يبلغ به السعادة. فهذا أول شرائط الرئيس. ثم أن يكون له مع ذلك قدرة بلسانه على جودة التخيل بالقول لكل ما يعلمه، وقدرة على جودة الإرشاد إلى السعادة، وإلى الأعمال التي بها تبلغ السعادة، وأن يكون له مع ذلك جودة ثبات ببدنه لمباشرة أعمال الجزئيات.

الفصل الثامن والعشرون

القول فى خصال رئيس المدينة الفاضلة

فهذا هو الرئيس الذى لا يرأسه إنسان آخر أصلًا. وهو الإمام، وهو الرئيس الأول للمدينة الفاضلة، وهو رئيس الأمة الفاضلة، ورئيس المعمورة من الأرض كلها. ولا يمكن أن تصير هذه الخال إلا لمن اجتمعت فيه بالطبع اثنتا عشرة خصلة قد فُطر عليها:

ـ أحدها أن يكون تامَّ الأعضاء، قواها مؤاتية أعضاءها على الأعمال التى شأنها أن تكون بها؛ ومتى همَّ بعضو ما من أعضائه عملًا يكون به فأتى عليه بسهولة.

ـ ثم أن يكون بالطبع جيد الفهم والتصور لكل ما يقال له، فيلقاه بفهمه على ما يقصده القائل، وعلى حسب الأمر فى نفسه.

ـ ثم أن يكون جيّد الحفظ لما يفهمه ولما يراه ولما يسمعه ولما يدركه، وفى الجملة لا يكاد ينساه.

ـ ثم أن يكون جيّد القطنة، ذكيًّا، إذا رأى الشيء بأدنى دليل فطن له على الجهة التي دلّ عليها الدليل.

ـ ثم أن يكون حسن العبارة، يؤاتيه لسانه على إبانة كل ما يضمره إبانة تامة.

ـ ثم أن يكون محبًّا للتعليم والاستفادة، منقادًا له، سهل القبول، لا يؤلمه تَعَبُ التعليم، ولا يؤذيه الكدّ الذي ينال منه.

ـ ثم أن يكون غير شره على المأكول والمشروب والمنكوح، متجنبًا بالطبع للعب، مبغضًا للّذات الكائنة عن هذه.

ـ ثم أن يكون محبًّا للصدق وأهله، مبغضًا للكذب وأهله.

ـ ثم أن يكون كبير النفس، محبًّا للكرامة: تكبر نفسه بالطبع عن كل ما يشين من الأمور، وتسمو نفسه بالطبع إلى الأرفع منها.

ـ ثم أن يكون الدرهم والدينار وسائر أعراض الدنيا هيّنة عنده.

ـ ثم أن يكون بالطبع محبًّا للعدل وأهله، ومبغضًا للجور والظلم وأهلهما، يعطي النصف من أهله ومن غيره ويحثّ عليه، ويؤتي مَن حل به الجور مؤاتيًا لكل ما يراه حسنًا وجميلاً، ثم أن يكون عدلاً غير صعب القياد، ولا جموحًا ولا لجوجًا إذا دُعي إلى العدل، بل صعب القياد إذا دعي إلى الجور وإلى القبيح.

ـ ثم أن يكون قوىّ العزيمة على الشىء الذى يرى أنه ينبغى أن يُفعل، جسورًا عليه، مقْدامًا غير خائف، ولا ضعيف النفس.

واجتماعُ هذه كلها فى إنسان واحد عَسُر؛ فلذلك لا يوجد من فطر على هذه الفطرة إلا الواحد بعد الواحد، والأقل من الناس. فإنْ وجد مثل هذا فى المدينة الفاضلة ثم حصلت فيه، بعد أن يكبر، تلك الشرائط الستُّ المذكورة قبلُ أو الخمس منها دون الأنداد من جهة المتخيّلة كان هو الرئيس. وإن اتفق أن لا يوجد مثله فى وقت من الأوقات، أخذت الشرائع والسنن التى شرعها هذا الرئيس وأمثاله، أن كانوا توالوا فى المدينة، فأثبتت. ويكون الرئيس الثانى الذى يخلف الأول مَن اجتمعت فيه من مولده وصباه تلك الشرائط، ويكون بعد كبره، فيه ست شرائط:

ـ أحدها أن يكون حكيمًا.

ـ والثانى أن يكون عالمًا حافظًا للشرائع والسنن والسِيَر التى دبرها الأولون للمدينة، محتذيًا بأفعاله كلها حذوَ تلك بتمامها.

ـ والثالث أن يكون له جودة استنباط فيما لا يُحفَظ عن السلف فيه شريعة، ويكون فيما يستنبطه من ذلك محتذيًا حذوَ الأئمة الأولين.

ـ والرابع أن يكون له جودة رويّة وقوة استنباط لما سبيلُه أن يعرف فى وقت من الأوقات الحاضرة من الأمور والحوادث التى تحدث مما

ليس سبيلُها أن يسير فيه الأوّلون، ويكون متحريًا بما يستنبطه من ذلك صلاح حال المدينة.

ـ والخامس أن يكون له جودة إرشاد بالقول إلى شرائع الأولين، وإلى التي استنبط بعدهم مما احتذى فيه حذوهم.

ـ والسادس أن يكون له جودة ثبات ببدنه في مباشرة أعمال الحرب، وذلك أن يكون معه الصناعة الحربية الخادمة والرئيسة.

فإذا لم يوجد إنسان واحد اجتمعت فيه هذه الشرائط ولكن وجد اثنان، أحدهما حكيم، والثاني فيه الشرائط الباقية، كانا هما رئيسين في هذه المدينة. فإذا تفرّقت هذه في جماعة، وكانت الحكمة في واحد والثاني في واحد والثالث في واحد والرابع في واحد والخامس في واحد والسادس في واحد، وكانوا متلائمين، كانوا هم الرؤساء الأفاضل. فمتى اتفق في وقت ما أن لم تكن الحكمة جزء الرياسة وكانت فيها سائر الشرائط، بقيت المدينة الفاضلة بلا ملك، وكان الرئيس القائم بأمر هذه المدينة ليس بملك. وكانت المدينة تعرض للهلاك. فإن لم يتفق أن يوجد حكيم تضاف الحكمة إليه، لم تلبث المدينة بعد مدة أن تهلك.

الفصل التاسع والعشرون

القول فى مضادات المدينة الفاضلة

والمدينة الفاضلة تضادها المدينة الجاهلية، والمدينة الفاسقة، والمدينة المتبدّلة، والمدينة الضالة. ويضادها أيضًا من أفراد الناس نوائب المدن.

(١) والمدينة الجاهلية هى التى لم يعرف أهلها السعادة ولا خطرت ببالهم. أن أرشدوا إليها فلم يفهموها ولم يعتقدوها، وإنما عرفوا من الخيرات بعضَ هذه التى هى مظنونة فى الظاهر أنها خيرات من التى تُظَنّ أنها هى الغايات فى الحياة، وهى سلامة الأبدان واليسار والتمتُّع باللذات، وأن يكون مخلًّى هواه، وأن يكون مكرّمًا ومعظّمًا. فكل واحد من هذه سعادة عند أهل الجاهلية. والسعادة العظمى الكاملة هى اجتماع هذه كلها. وأضدادُها هى الشقاء، وهى آفات الأبدان والفقر وأن لا يتمتّع باللّذات، وأن لا يكون مخلّى هواه وأن لا يكون مكرّما.

وهى تنقسم إلى جماعة مدن، منها:

أ ـ المدينة الضرورية، وهى التى قصد أهلها الاقتصار على الضرورى مما به قوام الأبدان من المأكول والمشروب والملبوس والمسكون والمنكوح، والتعاون على استفادتها.

ب ـ والمدينة البدّالة هى التى قصد أهلُها أن يتعاونوا على بلوغ اليسار والثروة، ولا ينتفعوا باليسار فى شىء آخر، لكن على أن اليسار هو الغاية فى الحياة.

جـ ـ ومدينة الخسّة والسقوط، وهى التى قصد أهلها التمتّع باللذّة من المأكول والمشروب والمنكوح، وبالجملة اللذة من المحسوس والتخيّل وإيثار الهزل واللعب بكل وجه ومن كل نحو.

د ـ ومدينة الكرامة، وهى التى قصد أهلها على أن يتعاونوا على أن يصيروا مكرمين ممدوحين مذكورين مشهورين بين الأمم، ممجدين معظمين بالقول والفعل، ذوى فخامة وبهاء، أما عند غيرهم وأما بعضهم عند بعض، كل إنسان على مقدار محبته لذلك، أو مقدار ما أمكنه بلوغُه منه.

هـ ـ ومدينة التغلب، وهى التى قصد أهلها أن يكونوا القاهرين لغيرهم، الممتنعين أن يقهرهم غيرُهم، ويكون كدّهم اللذّة التى تنالهم من الغلبة فقط.

و ـ والمدينة الجَمَاعِيَّة، هي التي قصد أهلها أن يكونوا أحرارًا، يعمل كل واحد منهم ما شاء، لا يمنع هواه في شيء أصلًا.

وملوك الجاهلية على عهد مُدُنها، أن يكون كل واحد منهم إنما يدبّر المدينة التي هو مسلَّط عليها ليحصل هواه وميله. وهمم الجاهلية التي يمكن أن تُجْعَلَ غايات هي تلك التي أحصيناها آنفًا.

(٢) وأما المدينة الفاسقة، وهي التي آراؤها الآراء الفاضلة، وهي التي تعلم السعادة والله عز وجل والثواني والعقل الفعّال، وكل شيء سبيلُه أن يعلمه أهل المدينة الفاضلة ويعتقدونها، ولكن تكون أفعال أهلها أفعالَ أهل المدن الجاهلية.

(٣) والمدينة المبدّلة، فهي التي كانت آراؤها وأفعالها في القديم آراء المدينة الفاضلة وأفعالها، غير أنها تبدّلت فدخلت فيها آراء غير تلك، واستحالت أفعالها إلى غير تلك.

(٤) والمدينة الضالة، هي التي تظن بعد حياتها هذه السعادة، ولكن غُيّرت هذه، وتعتقد في الله عز وجل وفي الثواني وفي العقل الفعّال آراء فاسدة لا يصلح عليها (حتى) ولا أن أخذت على أنها تمثيلات وتخيلات لها، ويكون رئيسها الأول ممن أوهم أنه يوحى إليه من غير أن يكون كذلك، ويكون قد استعمل في ذلك التمويهات والمخادعات والغرور.

وملوك هذه المدن مضادّة لملوك المدن الفاضلة، ورياستهم مضادّة للرياسات الفاضلة، وكذلك سائر مَن فيها. وملوك المدن الفاضلة الذين يتوالون فى الأزمنة المختلفة واحدًا بعد آخر فكلهم كنفس واحدة، وكأنهم ملك واحد يبقى الزمان كلّه. وكذلك أن اتفق منهم جماعة فى وقت واحد، إما فى مدينة واحدة، وإما فى مدن كثيرة، فإن جماعتهم كملك واحد، ونفوسهم كنفس واحدة، وكذلك أهل كل رتبة منها، متى توالوا فى الأزمان المختلفة، فكلهم كنفس واحدة تبقى الزمان كله. وكذلك أن كان فى وقت واحد جماعة من أهل رتبة واحدة، وكانوا فى مدينة واحدة أو مدن كثيرة، فإن نفوسهم كنفس واحدة، كانت تلك الرتبة رتبة رياسة أو رتبة خدمة.

وأهل المدينة الفاضلة لهم أشياء مشتركة يعلمونها ويفعلونها، وأشياء أخر من علم وعمل يخص كل رتبة وكل واحد منهم. إنما يصير (كل واحد) فى حدّ السعادة بهذين، أعنى بالمشترك الذى له ولغيره معًا، وبالذى يخصّ أهل المرتبة التى هو منها. فإذا فعل ذلك كلُّ واحد منهم، أكسبته أفعالُه تلك هيئةً نفسانية جيدة فاضلة؛ وكلما داوم عليها أكثر، صارت هيئته تلك أقوى وأفضل، وتزايدت قوّتها وفضيلتها. كما أن المداومة على الأفعال الجيّدة من أفعال الكتابة تكسب الإنسان جودة صناعة الكتابة، وكلما داوم على تلك الأفعال أكثر صارت الصناعة التى بها تكون تلك الأفعال أقوى وأفضل، وتزيد قوتها

وفضيلتها بتكرير أفعالها، ويكون الالتذاذُ التابعُ لتلك الهيئة النفسانية أكثر، واغتباط الإنسان عليها نفسه أكثر، ومحبّته لها أزيد. وتلك حال الأفعال التي يُنال بها السعادة: فإنها كلما زيدت منها وتكررت وواظب الإنسان عليها، صيّرت النفس التي شأنها أن تسعد أقوى وأفضل وأكمل إلى أن تصير من حد الكمال إلى أن تستغني عن المادة، فتحصل متبرّئةً منها، فلا تتلف بتلف المادة، ولا إذا بقيت احتاجت إلى مادة.

فإذا حصلت مفارقة للمادة، غير متجسمة، ارتفعت عنها الأعراض التي تعرض للأجسام من جهة ما هي أجسام، فلا يمكن فيها أن يقال إنها تتحرك ولا أنها تسكن. وينبغي حينئذ أن يقال عليها الأقاويل التي تليق بما ليس بجسم. وكلما وقع في نفس الإنسان من شيء يوصف به الجسم بما هو جسم، فينبغي أن يسلب عن الأنفس المفارقة. و(أن) يفهم حالها هذه وتصورها عسير غير معتاد. وكذلك يرتفع عنها كل ما كان يلحقها ويعرض لها بمقارنتها للأجسام. ولما كانت هذه الأنفس التي فارقت، أنفسًا كانت في هيوليات مختلفة، وكان تبين أن الهيئات النفسانية تتبع مزاجات الأبدان، بعضها أكثر وبعضها أقل، وتكون كل هيئة نفسانية على نحو ما يوجبه مزاج البدن الذي كانت فيه، فهيئتُها لزم فيها ضرورة أن تكون متغايرة لأجل التغير الذي فيها كان. ولما كان تغاير الأبدان إلى غير نهاية محدودة، كانت تغايرات الأنفس أيضًا إلى غير نهاية محدودة.

الفصل الثلاثون

القول فى اتصال النفوس بعضها ببعض

وإذا مضت طائفة فبطلت أبدانها، وخلصت أنفسها وسعدت؛ فخلفهم ناس آخرون فى مرتبتهم بعدهم، قاموا مقامهم وفعلوا أفعالهم. فإذا مضت هذه أيضًا وخلصت، صاروا أيضًا فى السعادة إلى مراتب أولئك الماضين، واتصل كل واحد بشبيهه فى النوع والكمية والكيفية. ولأنها كانت ليست بأجسام صار اجتماعها، ولو بلغ ما بلغ، غير مضيّق بعضها على بعض مكانها، إذ كانت ليست فى أمكنة أصلاً، فتلاقيها واتصال بعضها ببعض ليس على النحو الذى توجد عليه الأجسام.

وكلما كثرت الأنفس المتشابهة المفارقة، واتصل بعضها ببعض، وذلك على جهة اتصال معقول بمعقول، كان التذاذ كل واحد منها أزيد شديدًا. وكلما لحق بهم من بعدهم، زاد التذاذُ مَن لحق الآن

بمصادفة الماضين، وزادت لذّات الماضين باتصال اللاحقين بهم، لأن كل واحدة تعقل ذاتها وتعقل مثل ذاتها مرارًا كثيرة، فتزداد كيفيّة ما يعقل؛ ويكون تزايدُ ما تلاقي هناك شبيهًا بتزايُد قوة صناعة الكتابة بمداومة الكاتب على أفعال الكتابة. ويقوم تلاحُق بعض ببعض في تزايد كل واحد، مقامَ تراذُف أفعال الكاتب التي بها تتزايد كتابته قوة وفضيلة. ولأنّ المتلاحقين (هم) إلى غير نهاية، يكون تزايد قوى كل واحد ولذّاته على غابر الزمان إلى غير نهاية.

وتلك حال كل طائفة مضت.

الفصل الحادى والثلاثون

القول فى الصناعات والسعادات

والسعادات تتفاضل بثلاثة أنحاء: بالنوع، والكمية، والكيفية. وذلك شبيه بتفاضُل الصنائع ههنا.

فتفاضُل الصنائع بالنوع هو أن تكون صناعات مختلفة بالنوع، وتكون أحداها أفضل من الأخرى، مثل الحياكة وصناعة البزّ وصناعة العطر وصناعة الكِناسة، ومثل صناعة الرقص وصناعة الفقه، ومثل الحكمة والخطابة. فبهذه الأنحاء تتفاضل الصنائع التى أنواعُها مختلفة.

وأهل الصنائع التى من نوع واحد بالكمية أن يكون كاتبان مثلاً، علم أحدهما من أجزاء صناعة الكتابة أكثر، وآخر احتوى من أجزائها على أشياء أقل، مثل أن هذه الصناعة تلتئم باجتماع علم شىء من اللغة وشىء من الخطابة وشىء من جودة الخط وشىء من الحساب، فيكون بعضهم قد احتوى من هذه على جودة الخطّ مثلاً وعلى شىء من الخطابة؛ وآخر احتوى على اللغة وعلى شىء من الخطابة وعلى جودة الخط؛ وآخر على الأربعة كلها.

والتفاضُل فى الكيفية هو أن يكون اثنان احتويا من أجزاء الكتابة

على أشياء بأعيانها، ويكون أحدهما أقوى فيما احتوى عليه وأكثر دراية. فهذا هو التفاضل فى الكيفية.

والسعادات تتفاضل بهذه الأنحاء أيضًا.

وأما أهل سائر المدن، فإن أفعالهم، لما كانت رديئة، أكسبتهم هيئات نفسانية رديئة، كما أن أفعال الكتابة متى كانت رديئة على غير ما شأن الكتابة أن تكون عليها، تكسب الإنسان كتابة أسوأ رديئة ناقصة. وكلما ازدادت من تلك الأفعال ازدادت صناعته نقصًا. وكذلك الأفعال الرديئة من أفعال سائر المدن تكسب أنفسهم هيئات رديئة ناقصة، وكلما واظب واحد منهم على تلك الأفعال ازدادت هيئته النفسانية نقصًا. فتصير أنفسهم مرضى. فلذلك ربما التذّوا بالهيئات التى يستفيدونها بتلك الأفعال، كما أن مرضى الأبدان، مثل كثير من المحمومين، لفساد مزاجهم، يستلذّون الأشياء التى ليس شأنها أن يُلتَذّ بها من الطعوم، ويتأذّون بالأشياء التى شأنها أن تكون لذيذة، ولا يحسون بطعوم الأشياء الحلوة التى من شأنها أن تكون لذيذة. كذلك مرضى الأنفس، بفساد تخيّلهم الذى اكتسبوه بالإرادة والعادة، يستلذون الهيئات الرديئة والأفعال الرديئة، ويتأذون بالأشياء الجميلة الفاضلة أو لا يتخيّلونها أصلًا. وكما أن فى المرضى مَن لا يشعر بعلّته، وفيهم مَن يظن مع ذلك أنه صحيح، ويقوى ظنّه بذلك حتى لا يصغى إلى قول طبيب أصلًا؛ كذلك مَن كان من مرضى الأنفس لا يشعر بمرضه ويظنّ مع ذلك أنه فاضل صحيح النفس، فإنه لا يصغى أصلًا إلى قول مرشد ولا معلّم ولا مقوّم.

الفصل الخامس والثلاثون

القول فى العدل

قالوا: فإذا تميّزت الطوائف بعضها عن بعض بأحد هذه الارتباطات، إما قبيلة عن قبيلة، أو مدينة عن مدينة، أو أحلاف عن أحلاف، أو أمة عن أمة، كانوا مثل تميّز كل واحد عن كل واحد؛ فإنه لا فرق بين أن يتميّز كل واحد عن كل واحد أو يتميّز طائفة عن طائفة؛ فينبغى بعد ذلك أن يتغالبوا ويتهارجوا. والأشياء التى يكون عليها التغالب هى السلامة والكرامة واليسار واللذّات وكل ما يوصل به إلى هذه. وينبغى أن يروم كل طائفة أن تسلب جميع ما للأخرى من ذلك، وتجعل ذلك لنفسها، ويكون كل واحد من كل واحد بهذه الحال. فالقاهرة منها للأخرى على هذه هى الفائزة، وهى المغبوطة، وهى السعيدة. وهذه الأشياء هى التى فى الطبع؛ إما فى طبع كل إنسان أو فى طبع كل طائفة، وهى تابعة لما عليه طبائع الموجودات الطبيعية. فما فى الطبع هو العدل. فالعدل إذًا التغالب. والعدل هو أن يقهر ما

اتفق منها. والمقهور إما أن يقهر على سلامة بدنه، أو هلك وتلف، وانفرد القاهر بالوجود؛ أو قهر على كرامته وبقي ذليلاً ومستعبدًا، تستعبده الطائفة القاهرة ويفعل ما هو الأنفع للقاهر في أن ينال به الخير الذي عليه غالب ويستديم به. فاستعباد القاهر للمقهور هو أيضًا من العدل. وأن يفعل المقهور ما هو الأنفع للقاهر هو أيضًا عدل. فهذه كلها هو العدل الطبيعي، وهي الفضيلة. وهذه الأفعال هي الأفعال الفاضلة. فإذا حصلت الخيرات للطائفة القاهرة فينبغي أن يعطى من هو أعظم غناء في الغلبة على تلك الخيرات من تلك الخيرات أكثر، والأقل غناء فيها أقل. وإن كانت الخيرات التي غلبوا عليها كرامة، أعطى الأعظم غناء فيه كرامة أكبر، وإن كانت أموالاً أعطى أكثر. وكذلك في سائرها. فهذا هو أيضًا عدل عندهم طبيعي.

قالوا: وأما سائر ما يسمّى عدلاً، مثل ما في البيع والشراء، ومثل ردّ الودائع، ومثل أن لا يغصب ولا يجوز، وأشباه ذلك، فإن مستعمله إنما يستعمله أولاً لأجل الخوف والضعف وعند الضرورة الواردة من خارج.

وذلك أن يكون كل واحد منهما كأنهما نفسان أو طائفتان مساوية (إحداهما) في قوتها للأخرى، وكانا يتداولان القهر. فيطول ذلك بينهما؛ فيذوق كل واحد الأمرين، ويصير إلى حال لا يحتملها. فحينئذ يجتمعان ويتناصفان، ويترك كل واحد منهما للآخر مما كانا يتغالبان

عنه قسطًا ما؛ فتبقى سماته، ويشرط كل واحد منهما على صاحبه أن لا يروم نزع ما فى يديه إلا بشرائط. فيصطلحان عليها. فيحدث من ذلك الشرائط الموضوعة فى البيع والشراء، ويقارب الكرامات ثم المواساة وغير ذلك مما جانسها. وإنما يكون ذلك عند ضعف كل من كل، وعند خوف كل من كل. فما دام كل واحد من كل واحد فى هذه الحال فينبغى أن يتشاركا. ومتى قوى أحدهما على الآخر فينبغى أن ينقض الشريطة ويروم القهر.

أو يكون الاثنان ورد عليهما من خارج شىء على أنه لا سبيل إلى دفعه إلا بالمشاركة وترك التغالب، فيتشاركان ريثَ ذلك؛ أو يكون لكل واحد منهما همّة فى شىء يريد أن يغلب عليه، فيرى أنه لا يصل إليه إلا بمعاونة الآخر له وبمشاركته له. فيتركان التغالب بينهما ريث ذلك، ثم يتعاندان. فإذا وقع التكافؤ من الفرق بهذه الأسباب وتمادى الزمان على ذلك، ونشأ على ذلك من لم يدر كيف كان أول ذلك، حسب أن العدل هو هذا الموجود الآن، ولا يدرى أنه خوف وضعف. فيكون مغرورًا بما يستعمل من ذلك. فالذى يستعمل هذه الأشياء، إما ضعيف أو خائف أن يناله من غيره مثل الذى يجد فى نفسه من الشوق إلى فعله، وإما مغرور.